

البعثات العلميّة المصريّة في مواجهة المركزيّة الغربيّة التدريب على صناعة القادة وكوادر الدولة

همزاي حامد حسن إبراهيم^١

الملخص

تسعى هذه الدراسة إلى بيان أثر البعثات العلميّة في النهضة الحضاريّة في مصر، والدور الذي لعبته في تمثين أواصر الأمن القومي في مواجهة السيطرة المتعدّدة الأشكال المركزيّة الغرب. ومن باب التأسيس المنهجي لهذه القضية الاستثنائيّة في تاريخ مصر وضعنا مجموعة من الفرضيّات جاءت بصيغة الأسئلة، وقد أوردناها على الوجه التالي:

- متى كانت البداية الأولى لإرسال البعثات العلميّة المصريّة إلى أوروبا؟.
- ما عدد البعثات العلميّة المصريّة إلى أوروبا في القرن التاسع عشر؟.
- ما الدور الذي أدّته البعثات العلميّة في تحقيق النهضة المصريّة الحديثة؟.
- إلى أيّ حدّ نجح طلاب البعثات في تحقيق الوعي النقدي بالأسس الحاكمة على المركزيّة الغربيّة؟.
- كيف نظر إلى مضامين النهضة والتقدّم، التي سيأخذ بها العالم العربي لإنجاز تقدّمه؟.

ولما كانت كل دراسة تفرض المنهج الذي يستخدمه الباحث لسبر أغوار الإشكاليّة المطروحة والوصول إلى حلول لها؛ بحيثُ تكشف النقاب عما فيها من غموض، فقد اقتضت طبيعة الدراسة تنوع مناهج البحث التي نستخدمها في معالجة الإشكاليّة

١ . مدرّس الفلسفة الحديثة والمعاصرة، كلية الآداب - جامعة أسيوط.

المطروحة في بحثنا، وجاءت على نحو ما يلي، المنهج التاريخي: وذلك لتتبع سير البعثات العلميّة المصريّة خلال القرن التاسع عشر (عصر النهضة العربيّة)، المنهج التحليلي: لتحليل مصطلحات الدراسة، وكذلك تحليل أهم أفكار وملامح النهضة. المنهج المقارن: لمقارنة أفكار ومواقف المفكرين من فكرة الانفتاح على الغرب، إلى جانب الآراء والأفكار التي تقتضي الدراسة التطرّق إليها. المنهج النقدي: لكي يقف الباحث على مقاصد ومرامي القائمين على البعثات العلميّة موضوع الدراسة، وبيان موقفنا من مضامين النهضة والبعثات العلميّة قبولاً أو رفضاً.

تمهيد

كان روّاد النهضة العربيّة مع مطلع القرن التاسع عشر قد قدّموا محاولات عدّة لتمدين مجتمعاتهم وأوطانهم التي أصابها من التخلّف والجمود ما أقعدها عن مواكبة عصر الحضارة والمدنيّة الأوروبيّة. وإن كانت أفكار هؤلاء لم تمثل الحلّ النهائي والأمثل للمشكلة، أو بالأحرى لم تمثل المشروع الإصلاحيّ كامل الأبعاد، فيكفيهم أنهم قاموا بعملية التوفيق الذي يطرح نماذج التقدّم والتمدّن الأوروبيّ أمام الذهن العربيّ القابع في التراث، ولكي تتقبّل شعوبنا هذا الطرح كان لا بدّ من التوفيق الذي يُبرز المحاسن لهذا التمدّن الأوروبيّ، كمثال يجب محاكاته وتقليده، وهذا التوفيق لا يتعارض مع الدين، بل يُحقّق ما جاء فيه بالقول الواضح الصريح «خذ الحكمة أينما وجدت»، والإسلام لا يُعارض المدنيّة التي تجلب الخير للشعوب التي آمنت به.

فكانت تلك هي المرحلة التي أسّس عليها روّاد النهضة الإصلاحيّ من أجل تمدين العالم العربيّ والإسلامي، والبداية بلا شكّ كانت في مصر، وهذا التوفيق يُعبّر عن إبداع المفكر العربيّ الحديث في حلّ مشكلات بلاده الغارقة في التخلّف والتأخّر على كافّة المستويات الحياتيّة، لأنّه دون التوفيق بين تراثنا الفكريّ والمدنيّة الغربيّة الحديثة، فلن تكون هناك نهضة حقيقيّة، وصعوبة المراحل الانتقاليّة تكمن في تغيير الأوضاع الراكدة والجامدة من حالة متخلّفة إلى حالة متقدّمة وتمدّنة، وهذا التغيير كان صعباً في تلك الفترة التاريخيّة التي

عاشت فيها شعوبنا في عزلة تامّة مكتفية بتراتها ومنعزلة عن الشعوب المتقدّمة. ونتيجة لذلك ورغبة في تحقيق حلم الوجود، اهتمّ روّاد النهضة العربيّة بتوجيههم للذهن العربي الإسلامي نحو ضرورة الاحتكاك بالغرب الأوروبي من أجل إحياء التراث العربي الإسلامي من جديد. فعلى الرغم من افتتانهم بالمدينيّة الأوروبيّة الحديثة، إلا أنّهم لم ينسوا فضل الحضارة العربيّة والإسلاميّة في صنع تلك المدينيّة الأوروبيّة، فلم ينسلخوا عن التراث بصورة تامّة، ولم ينجرّفوا مع تيار التغريب بالصورة التي تطبع مجتمعاتهم بالطابع الغربي الخالص، وتطمس هويّتهم، وتحوّلهم من مستقلّ إلى تابع. ولعلّ التحركّ الذاتيّ نحو أخذ محاسن التمدّن الغربي، لأمر يجعلنا نتقي مساوئه، لوجود الإرادة الحرة في الأخذ والاقْتباس، بدلاً من أن يُفرض علينا بصورته الكاملة فرضاً تتضح خلاله محاولات غزو الغرب وطمسه لثقافتنا العربيّة والإسلاميّة.

لن يُكتب للإصلاح النجاح دون دعم القيادات السياسيّة؛ إذ أدّت السياسات الجديدة لحكّام مصر في القرن التاسع عشر إلى وضع مصر على خارطة الدول الباحثة عن التقدّم والتمدّن، وظهر هذا في الكفاءة التي ظهرت بها البعثات المصريّة للدول الأوروبيّة. ومن ظواهر هذا التقدّم والسعي نحو التمدين والنهضة وال عمران إلحاح الحكّام على ضرورة التعليم، واهتمامهم بالصناعة، والتجارة والعلوم المدينيّة (الطب، والهندسة، والجغرافيا... إلخ). كما شهد القرن التاسع عشر ثورة فكريّة في العالم العربي؛ حيث السعي لإصلاح الفكر القديم البالي القائم على خرافات وبدع، والاهتمام بالقيم الحديثة المبنيّة على العلم، والتقدّم، والعقل. وعاشت المرأة العربيّة في القرن التاسع عشر بدايات التحرّر من عتق عبوديّة الجهل وسوء النظرة إليها، وذلك من خلال آراء مفكّري النهضة العربيّة وفهمهم لما ينبغي أن يكون عليه الفكر العربي والإسلامي، فوجدنا نظرة جديدة للمرأة ومن أهم الداعين إلى تحرّرها الشيخ رفاعة الطهطاوي وتلميذه قاسم أمين.

وشهد العالم العربي في القرن التاسع عشر الاهتمام بالترجمة والتأليف وإرسال البعثات العلميّة إلى الدول الأوروبيّة، ما أدّى إلى ظهور طبقة من المثقّفين والعلماء

نتيجة اهتمام رجال الدولة بالعلم والعلماء وإيمانهم بضرورة التعليم والعلوم الجديدة لإحداث النهضة الحديثة.

حاول حكام مصر النهوض بمصر في القرن التاسع عشر، ولهذا اتبعوا سياسات اقتصادية جديدة في الزراعة والصناعة والتجارة والشؤون العسكرية، فشقوا الترع وزودوا نسبة الأراضي المنزرعة، واهتموا بالبعثات التعليمية لتعليم المصريين الحرف المختلفة، واتبعوا سياسات جديدة في التجارة، منها سياسة الاحتكار التي اتبعها محمد علي، ولتنفيذ الاستقلال حاول محمد علي بناء جيش قوي. كل هذا بفضل حكمة القادة ونبوغ علماء الأمة، فعندما تتكاتف السياسة من التعليم والتنوير يكتب للمجتمع التقدم والنهوض والنجاة من قيود التبعية.

المحور الأول: أسس ومضامين النهضة العربية

إنّ المدنية كحالة مجتمعية لم تنشأ بين عشية وضحاها كنبت لم يغرسه البشر، ولكن هناك بوادر وأسباب أدت إلى وجودها وانتشارها داخل المجتمعات التي نعمت بها. فالمدنية يلزمها دعائم وأسباب لتحوّل من عالم الخيال الذي يعد غاية في الذات إلى عالم الواقع وما هو كائن بالفعل. والدولة هي الضمانة للحراك المدني على الطريق الصحيح، خاصّة في ظلّ الترقّي والتحضّر الذي تسعى إليه الشعوب، والتي تنتج أشكالاً مختلفة من الرفاهية والازدهار، وإنتاج أفكار سرعان ما تحوّلته من خيال إلى واقع، ممّا يؤدي إلى تحقيق الأهداف والغايات. وتكمن معوقات التمدّن في الجمود والتخلّف والعقبات التي تقف في طريق تمدن الدولة من تراخٍ وتكاسل عن طريق تصدير اليأس والإحباط لكل محاولات الاجتهاد التي تدفع إلى التحضّر والتقدّم. والدولة هي الوسيلة لتحقيق هذا الحكم المدني، وإيجاد الحالة المدنية للمجتمعات.

كانت البداية الحقيقية للنهضة في مصر التي عرفت أوّل محاولة لتحديث الدولة في أيام علي بك الكبير (ت ١٧٧٣م) وهو الذي أعلن استقلال مصر عن الدولة العثمانية ١٧٦٩م، وأوقف دفع الجزية وصك النقود باسمه، وتخلّص من الموظفين الموالين

للأترك. وبعد الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨م) حمل مشعل التحديث محمد علي باشا (١٧٦٩- ١٨٤٩م) الذي تولّى الحكم سنة ١٨٠٥م. ونجح في إقامة دولة حديثة أدخل بها إصلاحات كبيرة مثل تكوين جيش وطني، وإنشاء المدارس العليا، وشقّ الترع وبناء الجسور والكباري والسدود، وإقامة الصناعات الجديدة، وإرسال البعثات العلمية إلى الخارج، ولكن الدول الأوروبية حالت دون توسع هذه المحاولة النهضوية وقضت عليها في عام ١٨٤٠م.

ويأتي دور محمد علي في إحداث النهضة المصرية والعربية الحديثة في كافة مكونات الحياة المصرية، وخاصة فيما يتصل بمكوناتها وعناصرها الفكرية، فكان محمد علي يؤمن بأن النهضة الحقيقية لا تحدث إلا من خلال التعليم وإصلاح الحياة الفكرية داخل المجتمع المصري؛ ولذا سعى نحو تأسيس الدولة المصرية الحديثة، واهتمّ بمؤسسات الدولة العلمية والتعليمية والثقافية. وكان لهذا الاهتمام بالجانب الفكري آثاره على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، سواء أكان هذا الأثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة. «فإيماناً من الرجل بأهمية العلم أرسل البعثات العلمية منذ ١٨١٣م إلى إيطاليا لدراسة فنون الطباعة، وفي أعوام ١٨١٨م، ١٨٢٦م، ١٨٤٠م أرسل بعثات إلى فرنسا لدراسة شتى العلوم العسكرية والمدنية، وعام ١٨٢٩م إلى النمسا وإنجلترا لدراسة فنون الصناعة»^١. وكان من ثمار البعثات إلى فرنسا الإصلاحات التي قادها رفاعة الطهطاوي في مصر من إصلاحات سياسية واجتماعية وتربوية، حيث اهتمامه بالتربية والتعليم، ومناذاته بتحرير المرأة وضرورة تعليمها، هذا من خلال الترجمات التي قدّمها ومن أبرزها القانون الفرنسي^٢. هذا إلى جانب مؤلفاته التي أسّست لقواعد التربية السياسية والدينية كما في «المرشد الأمين»، والكتاب الذي نقل من خلاله الحياة الفرنسية إلى الحياة المصرية في كافة أبعادها السياسية والاجتماعية والتربوية هو كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص

١. الرفاعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، ص ٤٠٧-٤٢٢.

٢. بدران، شبيل، رواد الفكر التربوي، ص ٢٠-٢٣.

باريز». وكل هذا يحسب للقائد والسياسي قبل أن يحسب للمفكر والمثقف، فلولا إتاحة الفرصة من قبل محمد علي وإيمانه بأهمية التعليم الحديث المدني والعسكري، لم يظهر مفكر أو مصلح يرغب في تحسين أحوال البلاد. وهذا ما سنفرده له مبحثاً فيما بعد.

ولا شك أن مقومات البقاء والبناء والنهوض تتمثل في السياسة والفكر والاقتصاد، وهي ذاتها أسباب التمدن والانحطاط. وعلينا أن ندرك أن الأفكار التي دارت حول مقومات التمدن ومعوقاته هي أفكار معاصرة علينا أن نقارب بينها وبين ما عبر به عنها رواد النهضة العربية الحديثة بالمتاح من الآراء والأفكار، لكن هذه المقاربة من أجل أن يعرف المهتم بتلك القضية أن مرحلة التأسيس في فكرنا الحديث انشغلت بتوطين المفاهيم في بيئة خلت منها أو لم تكن قريبة منها للمعوقات التي اصطدمت بها في ذلك الوقت المبكر من فجر النهضة الحديثة، وهذا ما كشفت عنه جهود مفكرينا في نقل تجربة المدينة الغربية ومحاولاتها، وهذا ليس بالعمل اليسير، وإنما كلفهم ذلك الكثير للخروج من التخلف وأبعاده المختلفة، والعمل على تمدين البيئة العربية وتحديثها. ولعل هذا من ضمن الأسباب التي أدت بطلاب البعثات العلمية إلى الاهتمام بالترجمة لنقل مفاهيم ومضامين النهضة الأوروبية إلى البيئة العربية والإسلامية. فكانت البعثات العلمية بمثابة النافذة الأولى الأكثر مصداقية لنقل التجربة الغربية من جانب والتخلص من التبعية لها من جانب آخر من خلال تنقية أفكارها ومحاولة صبغها بصبغة عربية وإسلامية. فكيف أدت البعثات العلمية دورها في تحقيق حلم النهضة والخروج من فلك المركزية الغربية.

المحور الثاني: البعثات العلمية ودورها في النهضة

البعثات العلمية هي رحلات أو برامج تهدف إلى نقل المعرفة والتقنيات الحديثة من دول وحضارات متقدمة إلى دول نامية تهدف إلى تطوير قدراتها العلمية والتقنية، وتقوم هذه البعثات بدور بارز في صناعة الكوادر العلمية والاجتماعية والسياسية داخل

المجتمع، من خلال إدراكه لذاته ونواقصه، واكتشاف أسباب نجاح الآخر وفرص الأخذ عنه. فلا يمكن للإنسان أن يُحقّق النجاح إلّا إذا أدرك نواقصه وتحركّ بمحض إرادته الحرة لمحوها والقضاء عليها، ومن هنا فلا سبيل لتحقيق نهضتنا العربيّة إلّا بتجاوز سلبياتنا والتخلّص من التبعية للآخر ومحاولة دفع فرص النجاح والتأكيد عليها، وهذا ما أدركه محمّد علي باشا مؤسس النهضة العربيّة والمصريّة الحديثة.

ومن يقرأ التاريخ بشيء من العناية يجد هذه المنح الإلهيّة قد قيضت لمحمّد علي. فعندما أتاحت له الفرصة عرش مصر لا بدّ أن يكون قد تملكه هذا الشعور الصادق بما ينقصه ليكون عرشه قوي الدعائم... ولكن هذا الشأن عجيب في محمّد علي، فقد شعر رغم أميته بأن الملك لا يُشيد إلّا على أمتن أساس من العلم، وأن العلم الذي تُدعم به الممالك ليس هو الذي يسمّونه علمًا في الشرق (العلوم الدينيّة) - وإن كنا نرفض هذه النعرة ونؤكّد ضرورة الاهتمام بالجانبين الديني والدينيوي-، وإنّما هو الذي قامت به المدنيّة الغربيّة، وشيّدت عليه صرح عليائها وقوتها فأقرّت لها الأمم بالغلبة (العلوم المدنيّة الحديثة). ذلك بلا شكّ هو ما جال في نفس محمّد علي، وذلك ما حفّزته همّته إلى العمل لبلوغه، فعمل وأفلق ولم يكن له من المؤازرين ما كان لمثل نابليون، ولا حوله من العلماء ما كان حول سائر الملوك الذين رفعوا شأن ممالكهم في أوروبا وهذا شأن آخر له يدعو إلى العجب العجاب^١. فحاول الرجل أن يُحصّن نفسه ومشروعه بنخب من العلماء في كلّ التخصصات.

ويأتي دور محمّد علي في إحداث النهضة المصريّة والعربيّة الحديثة في كافّة مكوّنات الأيديولوجيّة المصريّة، وخاصّة فيما يتّصل بمكوّناتها وعناصرها الفكريّة، فكان الرجل يؤمن بأنّ النهضة الحقيقيّة لا تحدث إلّا من خلال التعليم وإصلاح الحياة الفكريّة داخل المجتمع المصري؛ ولهذا سعى نحو هيكلة جديدة للدولة، واهتم بمؤسّسات الدولة العلميّة والتعليميّة والثقافيّة. وكان لهذا الاهتمام بالجانب الفكري أثاره على الحياة

١. طوسون، عمر، البعثات العلمية في عهد محمّد علي ثمّ في عهدي عباس الأوّل وسعيد، ص ٦٥-٦٠.

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، سواء أكان هذا الأثر بصورة مباشرة أو غير مباشرة. فإيماناً من الرجل بأهمية العلم أرسل البعثات العلمية منذ ١٨١٣ م إلى إيطاليا لدراسة فنون الطباعة، وفي أعوام ١٨١٨ م، ١٨٢٦ م، ١٨٤٠ م أرسل بعثات إلى فرنسا لدراسة شتى العلوم العسكرية والمدنية، وعام ١٨٢٩ م إلى النمسا وإنجلترا لدراسة فنون الصناعة^١. وكان محمد علي قد أولى الترجمة أهمية خاصة، فقد مرت الترجمة في مصر بعدة أطوار أولها: في عصر محمد علي الذي أدرك أن النهضة التي يريها لمصر لن تتحقق إلا بوفرة المعارف الأوروبية الحديثة، وأيقن أنه لا بد من نقل العلوم الحديثة من أوروبا إلى اللغة العربية (فهو لم يكتف بإرسال البعثات فحسب) حتى يتيسر للمصريين الوقوف على المستوى المتقدم، فينهلوا منه ما يعينهم على المساهمة الفعالة في بناء المجتمع الجديد، ومن ثم فقد قام بتكليفه كل الطلبة المبعوثين الذي أوفدهم إلى أوروبا، بترجمة المصنّفات التي أخذوا عنها إلى اللغة العربية والتركية. وفي عام ١٨٣٥ م استجاب لدعوة رفاة الطهطاوي -الذي يعدّ الأب الروحي لهذا الفنّ (فنّ الترجمة)- لإنشاء مدرسة المترجمين التي أصبحت مدرسة الألسن ١٨٣٦ م، وكان الغرض الأساسي من إنشائها هو تخفيف عبء التعريب عن كواهل أعضاء البعثات، وإعداد طبقة من العلماء الأكفاء في الآداب العربية وفي آداب اللغات الأجنبية. ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب الأجنبية، وليكونوا صلة الوصل بين الثقافة العربية والغربية، وينهضوا بالأداة الحكومية، فيما يعهد إليهم من مناصب، وفي عام ١٨٤١ م، أنشأ رفاة الطهطاوي قلم الترجمة، وألحقه بمدرسة الألسن، واهتمّ بترجمة الكتب الفرنسية على وجه الخصوص^٢.

فمنذ عصر محمد علي وخلفائه كانت البعثات رافداً أساسياً من روافد النهضة الوطنية، ومع إنشاء الجامعة عام ١٩٠٨ م قامت بإرسال البعثات العلمية من أجل تكوين فريق من

١. الراجعي، عبد الرحمن، عصر محمد علي، ص ٤٠٧-٤٢٢؛ وانظر: نصار، عصمت، الفكر المصري الحديث بين النقص والنقد، ج ٢، ص ٢٩.

٢. تاجر، جاك، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، م. س، ص ٢٦-٢٧؛ وانظر: الفكر المصري الحديث بين النقص والنقد، م. س، ص ٣٤.

الأساتذة للتدريس بها، حيث تقرّر أن تكون الإقامة في أوروبا طول مدة البعثة للحصول على أعلى الشهادات العلمية في تخصصات مختلفة على أن تقوم لجنة فنية باختيارهم، وقد قرّرت الأخيرة إرسال البعثة الأولى والتي ضمتّ أحد عشر طالباً إلى إنجلترا وفرنسا في تخصصات علمية أكثر منها أدبية^١.

والأمر لم يكن مجرد شكل من أشكال الاهتمام الزائف بالتعليم والبعثات العلمية كشكل من أشكال النهوض بالتعليم والحياة الثقافية، بل الأمر مأخوذ على محمل الجد والرغبة الملحة لتحقيق الغرض من تلك البعثات. إذ كان لكل طالب ملفّ خاصّ به محفوظ لدى مجلس الإدارة، بحيث يدوّن فيه خطوات كيفية تحصيله للعلوم من خلال ما يُسجّله مندوبون مكلفون من الجامعة بمراقبتهم، فضلاً عن إرسال الطلاب لخطابات كتقرير عن حالتهم العلمية والمعيشية هناك، وفي حال تقصير الطالب أو تأخره عن إرسال هذا التقرير يتم خصم مبلغ من راتبه حسب ما يرى مجلس الإدارة، ولنا أن نقول إنّ مسألة متابعة وضع المبعوثين للخارج كانت متبّعة منذ نشأة الجامعة لكي تضمن الأخيرة سيطرتها على الطالب حتى أنها كانت تشترط أمراً واحداً وهو التزام الطالب بالتدريس في الجامعة المصرية بعد الانتهاء من بعثته الدراسية^٢.

سنركّز في صفحات الدراسة على محاولات محمّد علي باشا بوصفه رائد النهضة ومن أوائل القائمين على إرسال البعثات إلى الدول المتقدّمة؛ إذ أرسل العديد من البعثات العلمية كان أهمّها ثلاث بعثات، وكانت البعثة الثالثة عام ١٨٢٦ م هي الأبرز والأهم.

البعثة الأولى: وكانت إلى إيطاليا عام ١٨١٣ م، إذ كانت إيطاليا أوّل البلاد التي أرسل إليها محمّد علي باشا بعثات علمية، فقد أوفد سنة ١٨١٣ م وما بعد هذا العام إلى ليفورن وميلان وفلورنسة ورومية وغيرها من مدن هذه المملكة عدّة تلاميذ لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن والطباعة والهندسة وغيرها. ومن طلاب البعثات العلمية

١. إبراهيم، سامية حسن، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطوير، ص ١٢٤.

٢. الجامعة الأهلية بين النشأة والتطوير، م. س.

إلى إيطاليا نقولا مسابكي أفندي الذي أرسله إلى ميلان حوالي سنة ١٨١٥ م ليتعلّم فنّ سبك الحروف ودراسة فنّ الطباعة فيها. فأقام أربع سنوات وعاد إلى مصر وتولّى إدارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ م وبقي مديرًا لها إلى أن توفي سنة ١٨٣١ م^١.

البعثة الثانية: وكانت إلى فرنسا عام ١٨١٨ م، إذ تحول نظر محمّد علي باشا عن إيطاليا إلى فرنسا فأرسل إليها طائفة من التلاميذ حوالي سنة ١٨١٨ م، ومن أبرز طلاب هذه البعثة عثمان نور الدين أفندي الذي أرسله سنة ١٨١٩ م لإتقان الفنون الحربيّة والبحريّة، ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٢٠ م، وترقى في مناصبها إلى رتبة سرّ عسكر ورئيس للعمارة البحريّة المصريّة سنة ١٨٢٨ م بدلًا من محرم بك زوج بنت محمّد علي باشا.

البعثة الثالثة: كان عام ١٨٢٦ م بمثابة اللحظة الفارقة في طريق النهضة العربيّة، والتي جعلت من رفاة الطهطاوي رائدًا للنهضة العربيّة؛ «حيث إنّ الحكومة المصريّة كانت قد قرّرت إيفاد أكبر بعثاتها العلميّة وأهمّها إلى فرنسا، كي يطلب طلابها العلم الحديث هناك، وكانت هذه البعثة هي الإطلالة المهمّة والحقيقيّة للعنصر المصري والعربي على الحضارة الأوروبيّة الحديثة في مواطنها وديارها، وقد بلغ عدد أفراد هذه البعثة في البداية (٤٢ دارسًا)، انضمّ إليهم آخرون فيما بعد، حتى بلغ عدد أفرادها (١١٤ طالبًا) وكان الهدف من وراء إيفاد هؤلاء الطلاب، أن يعودوا ويساهموا في بناء الدولة وصنع الحضارة، لا أن يكونوا مجرد عساكر في الجيش الوطني الذي قام بمصر يومئذ للمرة الأولى منذ عصر وعهد الفراعنة الأقدمين»^٢.

فقامت هذه البعثة في مايو ١٨٢٦ م ووصلت إلى فرنسا في يوليو، فأشرف عليها مسيو جومار، وكان عددها أوّل ما أرسلت اثنين وأربعين تلميذًا، ثم لحق بهم غيرهم. وقد ذكرهم مسيو جومار واحدًا واحدًا ضمن تقرير عن حالتهم العلميّة سنة ١٨٢٨ م نشره

١. البعثات العلميّة في عهد محمّد علي ثمّ في عهدي عباس الأوّل وسعيد، م. س، ص ١٠.

٢. الطهطاوي، رفاة، الأعمال الكاملة - لرفاعة الطهطاوي، ج ١، ص ٤٨-٥٠.

بالمجلة الآسيوية، وذكر فيه أمام كل واحد منه عمره والبلد الذي ولد فيه والفن الذي يدرسه^١. وها هو معرّب هذا التقرير يقول: لم يبرح مسامع الجمهور وصول أربعين شاباً مصرياً في شهر يوليو سنة ١٨٢٦ مبعوثين من حكومة مصر إلى فرنسا لدرس مختلف فروع الإدارة والفنون والعلوم. ولقد تسامع أيضاً بنجاحهم إجمالاً في اللغة الفرنسية التي هي الموضوع الأوّل لدرسهم^٢.

ويستطرد مسيو جومار في تقريره مؤكّداً نجاح البعثة من جانب وعناية الدولة المصريّة بهم من جانب آخر، وتفاؤل الأساتذة الفرنسيين بهم من جانب ثالث، فيقول: ولما كان نجاحهم قد ابتدأ يُضاهي الاعتناء بهم، وظهرت بارقة الأمل في المستقبل، فإننا نرى الوقت قد حان للدخول في تفاصيل تنظيم المدرسة المصريّة التي تحتم علينا الاهتمام بها من الوجهة السياسيّة، كما تحتمها دراسة العلوم الشرقيّة وخدمة الإنسانيّة والمدنيّة، فلنتكلّم إذًا بالتفصيل عن أعمال هؤلاء الشبان المصريين، ونشرح خطواتهم الأولى لثقتنا بأنهم جديرون بالتفات الجمهور الفرنسي وعطفه بسبب جدّهم المستمر ونجاحهم الظاهر^٣.

وكانت البعثة الثالثة إلى فرنسا ١٨٢٦ م أبرز البعثات العلميّة التي ظهر أثرها في تمدين المجتمع المصري ونهوضه، لا سيّما أنّها غطّت معظم التخصصات التي عليها تُبنى المجتمعات ويُؤسّس من خلالها للنهضة الحقيقيّة؛ من فلاحه وملاحة وصناعة والإدارة والاقتصاد والمعادن والفنون العسكريّة والعلوم الإنسانيّة والترجمة والجغرافيا والفلك وغيرها.

ويمتدح مسيو جومار إصرار الحكومة المصريّة وحاكم مصر محمّد علي باشا آنذاك على إنجاح واستمرار البعثات العلميّة رغم الظروف التي تواجهها البلاد، وهذا ما ذكره الأمير عمر طوسون، فنجدّه يقول: ومن حسن الاتفاق أن جاءت هذه العناية وفق رغبة

١. البعثات العلميّة في عهد محمّد علي ثمّ في عهدي عباس الأوّل وسعيد، م. س، ص ١٢.

٢. م. ن.

٣. م. ن، ص ١٣.

الحكومة المصريّة، والدليل على ذلك أنّه رغم الخسارة التي تكبّدها ملك مصر أثناء الحوادث الجارية في الشرق لم يغض الطرف أبداً عن بعثته التي تكتسب العلوم لتفيد بها وطنها في زمن السلم، ولم يعد يكاتبهم إلا بالفرنسيّة، وأمر بإرسال تلاميذ آخرين وسفن ملأى بالمتاجر إلى فرنسا. وأمر الطلبة أن يستمرّوا على الاجتهاد ويتمّموا دروسهم، ولا يلتفتوا إلى شيء آخر مهما تكن نتيجة الحرب القائمة بين مصر وغيرها، وألاّ يشغّلوا عقولهم بغير دروسهم، وأن يعنوا عناية خاصّة بالعلوم الجغرافيّة^١.

المحور الثالث: نماذج من المبتعثين ودورهم في خدمة المجتمع^٢

نذكر هنا نماذج من بعض خريجي البعثات العلميّة ودورهم في إحداث النهضة داخل المجتمع المصري، وسنركّز على أشهر وأبرز هؤلاء الطلاب، وهو الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي الملقّب برائد النهضة العربيّة الحديثة.

النموذج الأوّل: دويدار مصطفى مختار أفندي: أرسل لتعلّم الإدارة الحربيّة، وكان راتبه الشهري ألفين وتسعمئة وستة عشر قرشاً. قام من فرنسا في أوّل أغسطس سنة ١٨٣٢ م بعد إتمامه دروسه، ولما رجع إلى مصر عُيّن عضواً في المجلس الأعلى للحكومة ومديراً لديوان الحربيّة سنة ١٨٣٥ م. ثمّ مديراً لديوان المدارس ١٨٣٦ م، أي ناظراً لهما، وهو أوّل ناظر للمعارف في مصر. وقد نال رتبة البكوية، وفي عهده أنشأت عدة مدارس ومكاتب، ولكن عهده لم يطل فقد أدركته الوفاة سنة ١٨٣٩ م.

النموذج الثاني: حسن الإسكندراني أفندي: أرسل لتعلّم البحريّة، وقد تلقّاها في ترسانة (برست)، ثمّ سافر مع زميليه محمود أفندي نامي ومحمّد أفندي شنان إلى إنجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وتكلّفوا فيها مدّة سنة (واحدًا وثلاثين ألفًا وسبعمئة وأربعين قرشاً وعشرين فضة)، وصُرف لهم هذا المبلغ في مارس سنة ١٨٣٣ م. وكان راتبه

١. البعثات العلميّة في عهد محمّد عليّ ثمّ في عهدي عباس الأوّل وسعيد، م. س، ص ٢٥-٢٦.

٢. م. ن، ص ٣٤ وما بعدها.

الشهري أربعة آلاف ومئة وستة وستين قرشاً. قام في فرنسا في أوائل يونية سنة ١٨٣٣ م. وفيما بعد حاز لقب باشا وصار ناظرًا للبحرّية. توفي غريقاً في حرب القريم، وكان قائداً للأسطول المصري، فغرق مع السفينة المصريّة (مفتاح جهاد) سنة ١٨٥٥ م.

النموذج الثالث: محمّد بيومي: بُعث إلى فرنسا لتلقّي العلوم الرياضيّة بها. وكان راتبه الشهري مئة قرش. قام من فرنسا في أوائل سنة ١٨٣٥ م ومعه كُتب كثيرة في الهندسة. وقد صار فيما بعد من كبار مدرّسي مدرسة المهندسخانة، وترك مؤلّفات نافعة في العلوم الرياضيّة وتوفي سنة ١٨٥٢ م.

النموذج الرابع: عمر الكومي: أُرسِل إلى فرنسا لتعلم العلوم الكيميائيّة وكان راتبه الشهري مئة قرش. وفي الدفاتر أنّه كان يتعلّم أيضاً صناعة التقطيرات والسكر. قام من فرنسا في أوائل سنة ١٨٣٢ م، وفي تاريخ مانجان أنّه ذهب فيما بعد إلى أمريكا لتعلّم صناعة السكر.

النموذج الخامس: علي هيبة: أُرسِل إلى فرنسا لتعلّم الطب والعلوم الطبيّة والصحيّة. وكان راتبه الشهري مئة قرش. قام من فرنسا في ديسمبر سنة ١٨٣٣ م بعد إتمام دروسه. ومن آثاره المطبوعة كتاب (طالع السعادة والأقبال في علم الولادة وأمراض النساء والأطفال) وكذلك كتاب (إسعاف المرضى في علم منافع الأعضاء). وكانت وفاته حوالي سنة ١٨٥٠ م.

النموذج السادس: حسين أفندي: أُرسِل إلى فرنسا وتعلّم في طولون، وكان راتبه الشهري خمسمئة قرش. وفي الدفاتر أنّ من بين ما كان يتعلّمه علم الرسم، وأنّه كان بطولون الميناء المشهورة بالعلوم والمنشآت البحريّة. وحيث إنّهُ لم يكن مع حسن الإسكندراني ورفاقه الذين كانوا يتعلّمون الفنون البحريّة، فالأرجح أنّه كان يتعلّم بطولون هندسة بناء السفن وإنشائها. وقام من فرنسا في أواسط سنة ١٨٢٩ م.

النموذج السابع: يوسف أفندي الأرمني: أُرسِل إلى فرنسا لتلقّي علم الفلاحة، وكان يتلقّاها في بلدة (روفل)، وكان راتبه الشهري خمسمئة قرش. قام من فرنسا في أوائل سنة

١٨٣٢ م. وترقى فيما بعد إلى ناظر مدرسة الزراعة بنبروه، ثم ناظر بساتين محمّد علي وأنجاله، وباسمه سُميت الفاكهة المعروفة بيوسف أفندي لأنّه هو الذي أوجدها بمصر. النموذج السابع: عمر زاده أمين أفندي الإسلامبولي: بُعث إلى فرنسا ليتلقّى فنّ صبّ المعادن وصنع الأسلحة. وكان راتبه الشهري أربعمئة قرش. قام من فرنسا أوائل سبتمبر سنة ١٨٣٢ م، وترقى فيما بعد إلى مدير مصلحة البارود (الكهرجلات) ونال رتبة بك.

النموذج الثامن: محمّد مظهر أفندي: بُعث إلى فرنسا لتلقي الهندسة بها، ثمّ سافر منها إلى إنجلترا في أكتوبر سنة ١٨٣٥ م للسياحة وتطبيق العلم على العمل. وكان راتبه الشهري أربعمئة قرش. قام إلى مصر في أواخر هذه السنة. وهو المهندس المشهور الذي بنى منار الإسكندرية ثمّ القناطر الخيرية وترقى فيها بعد إلى وزير الأشغال ونال رتبة الباشوية وتوفي سنة ١٨٧٣ م.

النموذج التاسع: مصطفى محرمجي: بُعث إلى فرنسا لتلقي الهندسة بها. ثمّ سافر منها إلى إنجلترا في أكتوبر سنة ١٨٣٥ م للسياحة وتطبيق العلم على العمل. وكان راتبه الشهري مئة قرش. قام إلى مصر في أواخر هذه السنة. وقد عُرف فيما بعد باسم بهجت. وهو بهجت باشا المشهور بآثاره الهندسية وناظر المعارف والأشغال وكانت وفاته سنة ١٨٧٢ م.

النموذج العاشر: رفاعه الطهطاوي: وهو النموذج الأبرز والأهم والذي سوف نستفيض في بيان آثاره على المجتمع المصري؛ وذلك لغزارة إنتاجه وتنوّع اطلاعه، وتلاقي معظم أفكاره مع أفكار محمّد علي باشا وطموحاته.

فقبل أن نبدأ في عرض نبذة عن حياة الشيخ رفاعه الطهطاوي وأفكاره التنويرية والنهضوية، علينا أن نؤكّد على أنّ محمّد علي والي مصر آنذاك، له الدور الأكبر في إحداث النهضة العربية التي بادرت إليها مصر أثناء حكمه للبلاد؛ حيث إرسال البعثات العلمية إلى البلدان المتقدمة والتمدّنة، فكان محمّد علي يؤمن بأنّ النهضة الحقيقية هي التي تقوم على أسس علمية، وقوة عسكرية مستقلة بذاتها، ولهذا سعى إلى محو الخرافات

التي تعيق التقدّم من خلال الانفتاح على المجتمعات المتقدّمة، وإرسال البعثات العلميّة إليها، وحاول تحقيق القوّة العسكريّة من خلال تكوين وإنشاء جيش وطني خالص. وشخصيّة محمّد علي كانت هي الشخصيّة التي يحاول الطهطاوي الوصول إليها في حكم البلاد، وذلك لأنّه يتمتّع بشخصيّة سياسيّة تصبو نحو التقدّم والمدنيّة، وكذلك تؤمن بالعلم وأهمّيته في إحداث النهضة. وهذا ليس بالغريب، فالطهطاوي يجعل السياسة (الحكميّة) الحاكم - شرطاً من شروط تحقيق المدنيّة والوصول إلى تمدّن الأوطان.

وُلد رفاة الطهطاوي في الخامس عشر من أكتوبر ١٨٠١ م، السابع من جمادى الثانية ١٢١٦ هـ، في مدينة طهطا، إحدى مدن محافظة سوهاج^١. وتوفّي في القاهرة ١٨٧٣ م. ويعدّ رفاة الطهطاوي أحد أركان النهضة العلميّة العربيّة، وإمامها في مصر، حاول بقدر المستطاع أن ينقل الثقافة الغربيّة إلى اللّغة العربيّة، ليعبر بوطنه في زمن قصير إلى آخر ما وصلت إليه البلاد الغربيّة في العصور الطويلة، ويُسهل على الدارسين العلم والمعرفة، وذلك من خلال تدريسه في الأزهر أو مدرسة الألسن، أو من خلال كتبه المؤلّفة أو المترجمة من خلال الصحف والمجلاّت^٢.

فكان رفاة الطهطاوي برويته الواسعة يهتمّ بكافة الجوانب التي تتعلّق بالنهضة والسبيل نحو التقدّم، ويتبيّن لنا من خلال توجيه النظر إلى كتاباته التربويّة والسياسيّة أنّه كان من المعجبين بالفكر الغربيّ، لا سيّما فكر فلاسفة العقد الاجتماعيّ، وفلاسفة التنوير، وفلاسفة الثورة الفرنسيّة من أمثال روسو، مونتسكيو وفولتير وغيرهم من قادة الفكر في أوروبا. فوجد الطهطاوي ضالّته في الفكر الغربيّ والحضارة الغربيّة، ولكن هذا ليس على حساب التراث، فكان الرجل يتطلّع إلى التقدّم والتمدّن الأوروبيّ، ويحاول أن ينقل هذا النموذج الذي تقبله مجتمعاته العربيّة والإسلاميّة، ولا ترفضه طالما أنّه يؤدّي إلى تحسين أحوال معيشتها^٣.

١. الطهطاوي، رفاة، الأعمال الكاملة، ج ١، ص ٣٧.

٢. الجزار، أحمد محمود، رواد الفكر المصري الحديث، ص ٢.

٣. إبراهيم، حمزاوي حامد حسن، مشكلة التمدّن في مطلع عصر النهضة العربيّة - القرن التاسع عشر، ص ١٤١.

فمن الإنصاف أن يقال: «إن الطهطاوي عندما سافر إلى فرنسا كانت لدية رؤية واعية للذات، والمعرفة بالإسلام والاعتزاز به، مع الرؤية الشمولية له، ما عصمه من أن يحدث له مثلما حدث لغيره، من صدمة حضارية ناشئة عن الفارق الحضاري بين الشرق والغرب، وما يترتب عليها من شعور بالانهزام أمام أضواء تلك الحضارة، ومن ثم محاولة استنساخها، وإعادة إنتاجها في بلاد الشرق، دونما مراعاة لحساسية الانتماء وطبيعة التربة»^١.

ولا شك في أن الاعتزاز بالنفس وإدراك الذات لذاتها يعصمها من الانحناء أمام المركزية الغربية التي تحاول أن تفرض ثقافتها وأيديولوجيتها على القاصي والداني من الأمم. ومن الإنصاف أن نقول إن الرؤية لم يكن ليكتب لها النجاح الفكري دون إيمان القيادة السياسية ودعمها، الممثلة في محمد علي باشا؛ الذي يمكن أن نقول عنه إنه من أوائل الرجال الذين أدركوا خطر التبعية والتماهي مع الغرب الذي يؤول في النهاية إلى فقدان الذات وطمس الهوية. فجاءت رؤية الحاكم متطابقة مع رؤية المفكر، فكتب لها الفلاح.

فكانت ثقافة رفاة الطهطاوي الدينية قد حمته من الانجراف عند الأخذ عن الحضارة الأوروبية، الأمر الذي يجعله ينظر إليها نظرة واعية، مدركة لما يأخذه وما يرفضه، وبفهم عميق مكّنه من تقديم صياغة حضارية لأسلوب التعامل، يتفق مع إسلامه الذي يعتز به، والذي آل على نفسه ألا يستحسن إلا ما لم يخالفه، وحول ذلك يقول: «ومن المعلوم أنني لا استحسن إلا ما لم يخالف نصّ الشريعة الإسلامية على صاحبها أفضل الصلاة وأشرف التحية»^٢. ويربط التمدن والتقدم بالشرع فيقول: «إن من أسباب التمدن في الدنيا التمسك بالشرع»^٣. فالعلوم الشرعية خير حافظاً للأمم إلى جانب العلوم الدنيوية، وهذا ما أدركه

١. رواد الفكر المصري الحديث، م. س، ص ٢.

٢. الطهطاوي، رفاة، تخلص الإبريز في تلخيص باريز، ص ١٤١.

٣. الطهطاوي، رفاة، المرشد الأمين للبنات والبنين، ص ١٢٥.

الطهطاوي مبعوث مصر إلى فرنسا، في البعثة الثالثة ١٨٢٦ م. وفي البداية لم يكن الطهطاوي من طلاب هذه البعثة، بل رشحه لصاحبها أستاذه الشيخ حسن العطار، كي يقوم لطلابها بالوعظ والإرشاد، ويؤمّمهم للصلاة، ثم انضم إلى طلاب البعثة، خاصة بعد اكتشاف الحكومة المصرية رغبته في العلم واستقرائه، وبدأ رفاعة رحلته في فرنسا، حيث قام بتعلّم اللّغة الفرنسيّة، وتعلّم الهجاء في ثلاثين يوماً، وذلك محاولة منه لمعرفة لغة الفرنسيين ليتّرجم كتاباتهم وعلومهم إلى العربيّة، وانهمك ليلاً نهاراً في القراءة والدرس والتحصيل، وفي عام ١٨٢٨ م عقد أوّل امتحان لأفراد البعثة، وكان رفاعة قد اجتاز الامتحان ومعه عدد من المصريّين^١.

ترك الطهطاوي مؤلّفات كثيرة، تنمّ عن ثقافة موسوعيّة تناولت بالنقد والتمحيص حقولاً معرفيّة كثيرة، كالتربية، والتاريخ، والجغرافيا، وأصول المعادن، والهندسة، والطب، والسياسة، والحقوق الطبيعية وأصولها. كل ذلك بفكر منفتح متعمّق، فهو حقّاً رائد الإصلاح والتنوير، وممن أرسوا دعائم النهضة الحديثة، وكانت كتاباته تمثّل السفينة التي من خلالها يمكن لنا النجاة من حالة التخلّف والركود في كافة أطر الحياة، ومنها:

١ - «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». أو «الديوان النفيس بإيوان باريس». وهو الكتاب الذي قال عنه المستشرق «كوسات دي برسفال» (١٧٥٩-١٨٣٥ م) «الكتاب الذي أراد أن يوقظ به (الطهطاوي) أهل الإسلام، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة، ويؤلّد عندهم محبّة التمدّن الإفرنجي والترقيّ في الصنائع المعاشية»^٢. «ويعدّ تخليص الإبريز من أهم كتب الطهطاوي؛ لأنّه قدّم ولأوّل مرة باللّغة العربيّة صورة جديدة للحياة السياسيّة، والعلميّة، والثقافيّة، والاجتماعيّة في باريس مع مقارنتها بجوانب الحياة في مصر، وأراد أن ينقل كل ما وصلت إليه فرنسا في مدارج التمدّن على المستويات السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة إلى بلاد الشرق وخاصة إلى الدولة المصريّة الحديثة،

١. الأعمال الكاملة، م. س، ج١، ص ٥٠-٥٢.

٢. م. ن، ج١، ص ١٠٢.

محاوياً جعل مصر صورة من الحضارة الغربيّة، لا سيّما المجتمع الفرنسي الحديث»^١.

٢- «مناهج الألباب المصريّة في مباحج الآداب العصريّة». «وقد خصّصه الطهطاوي للكلام عن التمدّن والعمران وأودع فيه فكره الاجتماعي، وطُبع في حياته عام ١٨٦٩ م»^٢.

٣- «المرشد الأمين في تربية البنات والبنين». «وهو الكتاب الذي خصّصه لفكرة التربية (تربية سياسيّة، دينيّة، أخلاقيّة)، وذكر فيه آراءه عن فكريّ الوطن والتمدن، وكانت طبعته الأولى عام ١٨٧٣ م»^٣.

ولرفاعة الطهطاوي بعض الترجمات التي كان ينقّحها ويلحقها بمؤلّفاته، «ولعل هذا لعدم براعته في الترجمة، مما جعله يقحم آراءه داخل المؤلّفات التي يترجمها»^٤. وقد يكون سبب هذا الإقحام مقصوداً من الرجل، وذلك رغبة منه لمقارنة ثقافة الغرب بثقافة الشرق الإسلامي. وخاصّة أنّ المؤلّفات والترجمات كان يهدف من ورائها إلى تثقيف وتعليم المصريّين والعرب والمسلمين، لذا فطبيعة هذه الغاية تقتضي التدخل في النصوص المترجمة لإيضاحها وإسقاطها على الواقع العربي والإسلامي آنذاك. ومن هذه الترجمات: «تاريخ القدماء المصريين ١٨٣٨ م، و تعريب القانون المدني الفرنسي ١٨٦٦ م، وتعريب قانون التجارة الفرنسي ١٨٦٨ م، وكتاب قلائد الفلاسفة ١٨٣٦ م، ومبادئ الهندسة ١٨٥٤ م، والمنطق ١٨٣٨ م، وروح الشرائع لمونتسكيو (لم يُطبع)، والدستور الفرنسي، وكتاب الجغرافيا العموميّة. تأليف ملطبرن، وترجمه رفاة الطهطاوي في أربع مجلّدات، وطُبع دون تاريخ، وأصول الحقوق الطبيعيّة التي تعتبرها الإفرنج أصلاً لأحكامهم (لم يُطبع)»^٥. هكذا كان رفاة الطهطاوي مفكراً موسوعياً لم يدّخر جهداً في سبيل رفعة وطنه وإلحاقه بركب التقدّم والتحضّر، ورغبة منه وقائده السياسي في الانفكاك من المركزيّة الغربيّة والتبعيّة لها.

١. حجازي، محمود فهمي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، ص ٢٤-٢٥.

٢. الشافعي، محمّد، رفاة الطهطاوي رائد النهضة، ص ٧٧.

٣. الأعمال الكاملة، م. س، ج ١، ص ١٠٣.

٤. م. ن، ج ١، ص ١٠٦ وما بعدها.

٥. رفاة الطهطاوي رائد النهضة، م. س، ص ٧٧-٧٩.

وفي النهاية فإنّه لا خلاف على أن الطهطاوي من أهم رواد النهضة المصرية، «وأنه شكّل مع حسن العطار، وعبد الرحمن الجبرتي، وجمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعلي مبارك، وعبد الله النديم، وعدد آخر من خريجي البعثات ثريا عظيمة ذات مصابيح ساطعة أضاءت سماء مصر.

وقد اعتمد محمد علي باشا على الشيخ رفاة في جزء كبير من مشروعاته في مصر، فقد ارتاد الطهطاوي فكرياً المجالات السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية، والصحية، والزراعية، والصناعية، والعسكرية، وتناول هذه الأمور بوعي وانتماء وطني ورحابة أفق، وإيمان بقدره مصر على التخلص من التخلف والعجز والقدرة على النهوض والتقدم. كما صاغ رفاة فكر النهضة بأسلوب يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وبين ثقافة الشرق وثقافة الغرب، وحرص على الجمع بين المناسب والمفيد، فالتراث عند رفاة يجمع ما هو روحي في الدين، ومادي في الحضارة وعمراني في المجتمع، ووجداني في الأدب»^١.

المحور الرابع: آليات دحض وتقويض المركزية الغربية

قام الغرب بتسويق حضارتهم، وفرضها على أنها هي حضارة الإنسانية، والتقدم والرقي، في مقابل إقصاء وتجاهل تام أو إخضاع لحضارة الأمة (العربية والإسلامية)، وكذا الحال مع الحضارات الأخرى، وهو ما حقق لها درجة من التسويق، لم يُتح لغيرها من الحضارات، فاكسبت بذلك درجة من الهيمنة والسيطرة^٢. وتوضح أشكال الهيمنة والسيطرة في نقطتين: الأولى: هيمنة المركزية الغربية ومحدداتها الثقافية والأيدولوجية وممارستها، اختزالاً للثقافات غير العربية، على اعتبار أنّ الثقافة الغربية هي الثقافة الكونية الشاملة. -وهي نقطة يُعاب عليها الغربي؛ حيث الغطرسة والالتفاف حول فكرة الحضارة المعجزة التي نشأت كنبت شيطاني دون أن تتأثر بغيرها من الحضارات السابقة- والنقطة

١. أبو علم، صبري محمد سليمان، رفاة الطهطاوي - رؤية من قريب، ص ٣.

٢. الغامدي، عبد اللطيف بن عبد الله بن محمود، المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان، ص ١٧١-١٧٢.

الثانية، الاستجابة السلبية لمعطيات تلك المركزية من قبل الثقافات الأخرى، ومن ضمنها الثقافة العربية، والإسلامية، والتي رهنت نفسها بعلاقة امتثالية للثقافة الغربية -وهي نقطة يُعاب عليها كل من ارتضى بأن يكون تابعاً لغيره فرداً كان أو حضارة، كل من استسلم لغيره وبات خانعاً مُهيئاً للاستعمار^١. فالمركزية في عمومها في الأطراف، فأقصى اليمين تحكمه العنجهية الحضارية، وأقصى اليسار أرض خصبة لقبول كافة الأفكار الغربية عنه ومهيئاً للاستعمار، وهو ما عبر عنه المفكر الجزائري المسلم مالك بن نبي (١٩٠٥-١٩٧٣م) بمسمى معيار القابلية للاستعمار، والذي جعل من التأهيل للإنساني والاجتماعي بوابة لصنع الحضارة. فكيف بنينا حضارتنا ونتخلص من التبعية للمركزية الغربية.

ولا سبيل للإصلاح والخروج من الأزمة إلا من خلال المصارحة والمكاشفة والاعتراف بالقصور، وهذا ما أوضحه عبد الصبور شاهين في تقديمه لكتاب شروط النهضة لمالك بن نبي، إذ يقول: «إن الاستعمار ليس مجرد عارض، بل هو نتيجة حتمية لانحطاطنا: هذه هي المشكلة، ولا جدوى من فكرة لا تسلّم بهذا المسلم الأساسي الذي يبرزه بن نبي وهو يؤكد أنه (لكي لا نكون مُستعمرين يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار) هذه الجملة البسيطة هي، فيما اعتقد، الإشعاع النوراني الأول، الذي استرسل ليُثير حلبة الصراع لنا، ولقد أضاءها من قبل نور تلك الآية المذكورة هنا كأساس للنظرية كلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾^٢.

فعلى الأمم وأفرادها وقادتها أن يضعوا فكرة التغيير نصب أعينهم ويستجيبوا للتحويلات والتغيرات الاجتماعية والسياسية، وهذا ما أكده الكاتب الاجتماعي بورك، وأكدّه مالك بن نبي إذ يقول: «إن الدولة التي لا تملك الوسائل لمسيرة التغيرات الاجتماعية لا تستطيع أن تحتفظ ببقائها»^٣. ويستطرد مالك بن نبي في بيان سبب الأزمة مقرونًا بحلّها، فنجدّه

١. إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية - إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات، ص ٥.

٢. بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة - شروط النهضة، ص ٩.

٣. م. ن، ص ٢٢.

يقول: «لقد أصبحنا لا نتكلم إلا عن حقوقنا المهضومة، ونسينا الواجبات، ونسينا أنّ مشكلتنا ليست فيما نستحقّ من رغائب، بل فيما يسودنا من عادات، وما يراودنا من أفكار، وفي تصوّراتنا الاجتماعيّة، بما فيها من قيم الجمال»^١.

إنّ السبيل الأوّل للخروج من عباءة ووصاية المركزية الغربيّة والاستعمار هو بناء الوعي والقدرة على تجاوز الآخر والانفكاك من دائرته وفلكه، وهذا ما يؤكّده مالك بن نبي في شروط النهضة، فيقول: «وليس ينجو من الاستعمار وأجناده، إلاّ إذا نجت من أن تتسع لذللّ مستعمر، وتخلّصت من تلك الروح التي تؤهّله للاستعمار. ولا يذهب كابوسه عن الشعب - كما يتصوّر بعض - بكلمات أدبيّة أو خطابيّة، وإنّما بتحوّل نفسي، يصبح معه الفرد شيئاً فشيئاً قادراً على القيام بوظيفته الاجتماعيّة، جديراً بأن تُحترم كرامته، وحينئذٍ يرتفع عنه طابع «القابليّة للاستعمار»، وبالتالي لن يقبل حكومة استعماريّة تنهب ماله، وتمتصّ دمه، فكأنّه بتغيير نفسه قد وضع حاكميه تلقائيّاً إلى الوضع الذي يرتضيه»^٢.

فأول ما يجعلنا نهدم ونقوِّض المشروع الغربي الداعم للمركزية الغربيّة، هو نقض المشروع نفسه، وذلك لا يمكن وكما أسلفنا إلاّ من خلال الإرادة الذاتية، وهذا هو ما حاول المفكّر الموسوعي حسن حنفي التأكيد عليه، يدعو حسن حنفي إلى ما يسمّى بعلم الاستغراب لمجابهة الاستشراق وخطره على الفكر العربي الإسلامي. وينطلق حسن حنفي من أساس نفسي في دعوته للاستغراب. فيضع هذا العلم لتعويض عقدة النقص الناجمة عن التفوّق الغربي. فالهدف من علم الاستغراب عند حسن حنفي هو تحجيم الغرب وردّه إلى حدوده الطبيعيّة وإنهاء الغزو الثقافي، لأنّ إعادة الشعور لا تتمّ إلاّ بالقضاء على اغترابه، وإعادة ربطه بجذوره القديمة. حتى لا يظلّ الغرب المرجعيّة المعرفيّة التي يردّ إليها كل شيء. فالاستشراق ليس علماً على الإطلاق يكشف عن حقيقة، بل هو سلاح

١. مشكلات الحضارة - شروط النهضة، م. س، ص ٣٤

٢. م. ن، ص ٣١.

في أيدي الدول الغربية لتحجيم الأنا الشرقي وهيمنة الآخر الغربي^١. فالاستشراق يعتبر الأداة المعرفية التي تنطلق من خلالها قوى المركز في دراسة حضارة الشرق وثقافته للتوصل إلى السيطرة عليه، ومنعه من أية محاولة للتخلص من تلك السيطرة^٢. وحول ذلك يبيّن محمود محمد شاكر خطر الاستشراق، فيقول: «الاستشراق هو عين الاستعمار التي بها يُبصر ويحدّق، ويده التي بها يحسّ ويبطش، ورجله التي بها يمشي ويتوغّل، وعقله الذي به يفكّر ويستبين، ولولاه لظلّ في عميائه يتخبّط، ومن جهل هذا فهو ببداءة العقول ومسلّماتها أجهل»^٣.

ولهذا ينبغي إقامة مشروع حسن حنفي -الاستغراب- من أجل التحرّر من تبعية المعرفة الاستشراقية، وكرّد فعل عليها بناء معرفة عربية إسلامية تتأسّس لا على الهيمنة وسلطة إنتاجها، بل على مبادئ التكامل المعرفي والتكافؤ في القوة. فمثل تلك المشروعات يمكن لها أن تقوِّض المركزية الغربية وغيرها من المشروعات الفكرية والسياسية والاقتصادية التي تحاول إغفال دورنا الحضاري.

ولا شك أنّ المشروعات الفكرية أمثال مشروع حسن حنفي، ومالك بن نبي، ورفاعة الطهطاوي، ومحمّد عبده، وعبد الرحمن الكواكبي، وجمال الدين الأفغاني، وغيرهم من المفكرين هي نتاج الثقافة التي تكوّنت نتيجة البعثات العلمية التي أنارت العقول وأيقظت الأذهان وأحيت الروح وبثّت فيها الحماسة والرغبة للتغيير، تارة مقلّدة، وأخرى مبدعة، وثالثة انتقائية تجمع بين محاسن الثقافتين الغربية والإسلامية. فلا يمكن لنا أن ننكر دور البعثات العلمية في إحداث النهضة العربية والإسلامية وتقويض أسس المركزية الغربية وآلياتها من خلال إيجاد وبناء كوادر فكرية، واقتصادية، وسياسية حملت مشعل التنوير وحمّت الأوطان من هيمنة وسيطرة الثقافة والحضارة الغربية، وجعلتها مركز الإنسانية، وجعلت ما خلاها من حضارات تابعة لها.

١. حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، ص ٣٤ وما بعدها؛ وانظر: محمود، محمود حميدة، المشكلة الخلقية وأبعادها

في الفكر الإسلامي المعاصر، ج ٢، ص ٥٣١ وما بعدها.

٢. المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان، م. س، ص ٢٢٤.

٣. رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، م. س، ص ٨٧ وما بعدها.

الخاتمة

وبعد ما تقدّم من عرض للدور الذي تقوم به البعثات العلمية في نهضة المجتمعات وتنمية كوادرها. وعرض لأهم وأبرز أفراد البعثات العلمية. وبيان آليات دحض و تقويض أسس المركزية الغربية وآليات ، يمكننا أن نوجز أبرز النتائج التي توصلت إليها الدراسة على نحو ما يلي:

أدت البعثات العلمية دوراً كبيراً في تقويض أسس ودعائم المركزية الغربية؛ حيث نجح طلاب البعثات في نقل تجربة المدينة الغربية إلى مجتمعاتهم العربية والإسلامية. فبعد عودة البعثات من أوروبا (إيطاليا وفرنسا وإنجلترا والنمسا... إلخ) حاول طلاب تلك البعثات الوقوف على أسباب تقدّم الغرب وسبب تخلف مجتمعاتهم عن الركب الحضاري، فقدّموا مشروعاتهم الفكرية والسياسية للنهوض بمجتمعاتهم، لا سيّما أنّهم وبعد عودتهم شغلوا وظائف مهمّة داخل الدولة، وصاروا من كوادرها الإدارية ونخبها الفكرية والعلمية، فمنهم من شغل منصب وزير في حكومات بلادهم، وبهذا شاركوا رجال الدولة في رسم معالم النهضة والتمدين.

تعدّ البعثات العلمية من أهمّ العوامل التي أدت إلى احتكاك الثقافة العربية والإسلامية بالثقافة الغربية، ووثقت الاتصال بينهم -على الصعيد الفكري على أقلّ تقدير قبولاً ورفضاً لمعطيات وأسس الحضارة الغربية-. وكذلك أدت إلى تكوين فهم للعقلية الأوروبية وطبيعتها.

كان لرجال السياسة عظيم الفضل في إنجاح مشروع البعثات العلمية، فلولا إيمان قادة الدول والمجتمعات بالعلوم ودورها في النهضة والتقدّم، ما كان لتلك البعثات أن تُقدّم وتتوسّع وتتعدّد، وخير دليل على ذلك حاكم مصر محمد علي باشا الذي يمكن أن نعدّه أوّل من أدرك خطر المركزية الغربية، فحاول إزاحتها عن مصر من خلال الاستقلال بحكم البلاد، ومحاولته تكوين جيش وطني خالص للدفاع عن حلمه ومشروعه، وكذلك اهتمامه بتطوير البلاد في كافة المناحي التجارية والزراعية والصناعية والعسكرية والفكرية؛ حتى

لا تجبره الحاجة والعوز للرضوخ لأحكام الغرب. ولم يكتف الرجل بإرسال البعثات العلميّة، بل كان حريصاً على مساهمة خريجي هذه البعثات في دفع عجلة النهضة. فكان محمّد على رائداً للنهضة ومحارباً للمركزيّة الغربيّة، ولا يزال الرجل ملهماً لكلّ قائد يحاول أن يبني وطنه بعيداً عن وصاية القوى الخارجيّة.

إنّ فكرة المركزيّة الغربيّة التي تسيدت الساحة الفكرية والفلسفيّة الآن، هي ليست فكرة جديدة، بل قديمة قدم نشوء فكرة الحضارة، فوجدناها تحت ما يُسمّى المعجزة اليونانيّة. والآن ومنذ زمن تتسلّل إلينا تحت مسمّيات نهاية التاريخ، وصراع الحضارات، وحوار الحضارات، وعصر الأيديولوجيا، وهي أفكار تهدف إلى تغليب الغرب باعتباره المركز وقهر ما سواه باعتباره أطرافاً. وعلينا أن ننتبه لخطر تلك الأفكار ونحاول تنفيذها حتى لا يحدث شرخ في هويّتنا، ولعلّ المشروع الذي أسس له حسن حنفي (مشروع الاستغراب) من أهمّ المشروعات التي باتت من الضروري للدول العربيّة والإسلاميّة أن تتبنّاه وتُجنّد من أهل الاختصاص من يقوم عليه. ولا شكّ أن البعثات العلميّة كانت سبباً من الأسباب التي أفقدت الغرب هيمنته على المجتمعات العربيّة، لا سيّما مصر؛ حيث ظهر جيل من المفكرين أدرك خطر الارتواء في أحضان الغير، فعمل على نشر الوعي بذلك جيلاً بعد جيل.

قائمة المصادر والمراجع

١. إبراهيم، سامية حسن، الجامعة الأهلية بين النشأة والتطوير، مركز تاريخ مصر المعاصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
٢. إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية - إشكالية التكوّن والتمركز حول الذات، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت - لبنان، ط٢، ٢٠٠٣م.
٣. أبو علم، محمّد صبري، رفاة الطهطاوي - رؤية من قريب، مكتبة الإسكندرية، د.ت.
٤. بدران، شبل، رواد الفكر التربوي، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠١م.
٥. بن نبي، مالك، مشكلات الحضارة - شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين - عمر كامل مسقاوي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، سوريا - دمشق، ١٩٧٩م.
٦. تاجر، جاك، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر، دار المعارف - القاهرة، ١٩٤٥م.
٧. الجزائر، أحمد محمود، رواد الفكر المصري الحديث، دار الكتب الجامعية، د.ت.
٨. حجازي، محمود فهمي، أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوي، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
٩. حمزاوي، حامد حسن إبراهيم، مشكلة التمدّن في مطلع عصر النهضة العربية - القرن التاسع عشر، رسالة ماجستير غير منشورة، إشراف: أ.د عبد الحي محمّد قابيل، محمود حميدة محمود، كلية الآداب - جامعة أسيوط، ٢٠١٦م.
١٠. حنفي، حسن، مقدمة في علم الاستغراب، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م.
١١. الرفاعي، عبد الرحمن، عصر محمّد علي، دار المعارف، القاهرة، ط٣، ١٩٨٩م.
١٢. الشافعي، محمّد، رفاة الطهطاوي رائد النهضة، المجلس القومي للشباب (الإذاعة والتلفزيون) د.ت، ٢٠٠٨م.

١٣. شاكر، محمود محمّد، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار المدني، جدة، ٢٠١٥ م.
١٤. الطهطاوي، رفاعه، الأعمال الكاملة - لرفاعة الطهطاوي، تحقيق: محمّد عمارة (التمدن والحضارة والعمران)، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ م.
١٥. _____، المرشد الأمين للبنات والبنين، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠ م.
١٦. _____، تخلص الإبريز في تليخيص باريز، تحقيق: محمود فهمي حجازي، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥ م.
١٧. طوسون، عمر، البعثات العلميّة في عهد محمّد عليّ ثمّ في عهدي عباس الأوّل وسعيد، مطبعة صلاح الدين - الإسكندريّة، ١٩٣٤ م.
١٨. الغامدي، عبد اللطيف بن عبد الله بن محمّد، المركزية الغربية وتناقضاتها مع حقوق الإنسان.
١٩. نصار، عصمت، الفكر المصري الحديث بين النقص والنقد، تصدير عاطف العراقي، د.ن، ١٩٩٦ م.